

المؤتمر الدولي الأول (دور المستشرقين في العلوم العربية والإسلامية)
كلية دار العلوم، جامعة القاهرة يومي الأربعاء والخميس 10 و11 إبريل 2019

الاستشراق والافتئاد على النحو العربي - تحليل ونقد

أ. د. فضل يوسف زيد

كلية دار العلوم – جامعة القاهرة، كلية الآداب - جامعة السلطان قابوس

مقدمة:

ترك علماءنا الأوائل تراثا لغويا وإرثا ثقافيا حقيقا منا بكل تقدير وإكبار ، بيد أن ثمة افتراءاتٍ أثرت حول أصالته ؛ إذ خرّصَ ثلّةٌ من المستشرقين المجانبين للموضوعية ، المحايدون للصواب وصوت الضمير ومن نحا نحوهم وترسّم خطاهم زاعمين أنّ النحو العربي تأثر في نشأته بمؤثرات أجنبية في محاولة منهم خبيثة للتشكيك والتشويش على هذا الإرث الثقافي الشامخ ، والغرض من هذه الدراسة هو تنفيذ رأي هؤلاء المستشرقين الذين قالوا بعدم أصالة النحو العربي، وأنه يدين في نشأته للنحو اليوناني والسرياني ، ودحض هذه التهمة الظالمة بالأدلة والبراهين والحجج والمنطق أيضا، وما يحزّ في النفس أنّ نفرا من الباحثين العرب تبنا آراء المستشرقين ودافعوا عنها ، ومن ثم طعنوا في أصالة التراث النحوي، وذهبوا إلى ما ذهب إليه هؤلاء المستشرقون من القول بوقوع النحو العربي تحت وطأة الثقافات الأجنبية ، وقد أريد لهذا البحث أن يقع في مقدمة ومبحثين وخاتمة، ألممت في المقدمة إمامة عاجلة بالحديث عن الاستشراق ، معناه ، وأهدافه ، ثم تناولت في المبحث الأول آراء بعض المستشرقين الذين طعنوا على النحو العربي، وفندت آراءهم ، وفي المبحث الثاني تحدثت عن آراء بعض من تبني آراء المستشرقين من الكتاب واللغويين العرب ، وحذا حذوهم أمثال جرجي زيدان ، وأنيس فريحة وفؤاد حنا ترزي وغيرهم ، وحاولت تنفيذ آرائهم ، والرد عليهم مع الاستعانة بأولئك نفر من الباحثين الذين أخذوا أنفسهم بالدفاع عن التراث العربي وتبديد الشكوك حول نشأة النحو العربي

وأصالته من أمثال السناذ العقاد، والشيخ محمود محمد شاكر والدكتور عبد الرحمن السيد ، والدكتور تمام حسان والدكتور علي أبو المكارم والدكتور إبراهيم السامرائي وغيرهم ، ثم تأتي الخاتمة وفيها أهم ما توصل إليه البحث من نتائج .

في تعريف الاستشراق:

اختلف الباحثون حول تعريف الاستشراق اختلافا كبيرا ، فليس ثمة تعريفٌ منقوً عليه من قبل الباحثين ؛ وربما كان السبب في ذلك تباين موضوعاته ، وتباين دوافع الباحثين فيه ، وتوسع مفهومه ، فالاستشراق هو طلب علوم الشرق ولغاتهم، والمستشرق يبحث في كل ما يتعلق بهم ، يبحث في علوم الشرق وآدابهم ولغاتهم وتراثهم ، ويمكن القول إنه : (تسمية شاملة دالة على دراسة العلوم واللغات والحضارات الخاصة بآسيا وأفريقيا منذ العصور المبكرة وحتى العصر الحاضر)¹

دوافع المستشرقين من دراسة التراث العربي:

اهتم المستشرقون بدراسة النحو العربي اهتماما بالغا ، وترسموا منهجه في تعلم العربية وتعليمها، كما حققوا بعض الكتب النحوية ، وترجموا بعضا آخر إلى لغاتهم ، ويذكر الدكتور إسماعيل أحمد عمارة أن المستشرق الألماني " يانز " Jahns ترجم كتاب سيبويه سنة 1895م، وترجم المستشرق الألماني (ترومب) Trumpp شرح الأجرومية ، ونشره بعنوان " مدخل إلى دراسة النحاة العرب" ، ونشر "ديرنبورغ" Derenboug ، كتاب سيبويه ، وتأثر كلُّ من هاول ،

¹ انظر البحث اللغوي في دراسات المستشرقين الألمان، العربية أنموذجا ص 6، رسالة ماجستير، جامعة الكوفة، كلية الآداب سنة 1431هـ = 2010م لعبد الحسن عباس حسن الجمل الزويني .

ورايت بالنعويين العرب في تأليف كتبهم في النحو واللغة .¹ على أن المستشرقين لم يقتصر اهتمامهم على التراث اللغوي العربي وحسب ، ولكنهم تناولوا – كما يقول الأستاذ محمود محمد شاكر- كل شيء يخص أمم دار الإسلام في ماضيها وحاضرها . كتبوا في القرآن ، وفي حديث رسول الله ﷺ وسيرته ، وفي تفسير القرآن وفي الفقه ، وفي تفاصيل شرائع الإسلام ، وفي تاريخ العرب والمسلمين ، وفي الأدب ، وفي اللغة ، والشعر ، وفي الفنون والآثار ، وفي علم البلدان (الجغرافية) ، وفي تراجم رجال الإسلام ، وفي الفرق الإسلامية ، وفي الفلسفة عند المسلمين ، وفي علم الكلام ...لهدف واحد لا غير: هو تصوير الثقافة العربية الإسلامية وحضارة العرب والمسلمين ، بصورة مقنعة للقارئ الأوربيّ تحطُّ في نظره حضارة الإسلام وثقافته.²

لكن لماذا يهتم المستشرقون بعلم العربية ، والدرس اللغوي والنحوي بصورة خاصة ؟

يريد المستشرقون من خلال كتاباتهم عن الثقافة والحضارة العربية أن يصلوا إلى نتيجة مؤداها: أن حضارة العرب مأخوذة من حضارات الأمم الأجنبية الأخرى كالسريان واليونان والفرس ، وأن لغتهم مأخوذة من لغات أجنبية أخرى كالسريانية واليونانية والفارسية وغيرها ، والمهم هو نفس هذه الحضارة العربية والإسلامية وتصويرها مزيفة ملفقة مختلقة ، وأنها غير قادرة على الإبداع الذاتي وفي سبيل ذلك يعتمدون على أدلة مظنونة لا أساس لها من الصحة ، وفي ذلك يقول فون كريم منكرًا نسبة النحو العربي إلى العرب : (وهناك رواية يتناقضها الناس في أغلب الأحيان وبمقتضاها كان تسرب الفساد إلى اللغة العربية في البصرة هو السبب في ضرورة وضع القواعد للنحو لإنقاذ اللغة العربية من الاضمحلال والفساد في المستقبل ، ولا حاجة بنا هنا إلى القول بأن هذه الرواية لا يُعول عليها إطلاقًا ولا أساس لها ؛ فالنحو العربي من وضع الأجانب من الأراميين والفرس ، وقد أوجدته الحاجة التي أحسّ بها هؤلاء الأجانب لتعلم كتابة اللغة العربية ، وقراءتها على وجه صحيح ، وعلى الأخص غير العرب الذين أرادوا أن يكرسوا

¹ انظر المستشرقون ونظرياتهم في نشأة الدراسات اللغوية ، دار حنين العبدلي ، عمّان ، الأردن ، الطبعة الثانية 1992 م للدكتور إسماعيل أحمد عميرة ص 14.

² راجع رسالة في الطريق إلى ثقافتنا لمحمود محمد شاكر ، مؤسسة الرسالة ، بيروت، طبعة سنة 1992م ، ص 61 .

حياتهم للدراسات العلمية ، وواضعو النحو العربي هم الأجانب من الجنسيات الآرامية والفارسية الذين دخلوا في الإسلام¹ ثم يورد بعد ذلك رواية تحط من شأن أبي الحسن الأخفش من خلال محادثة الجاحظ معه ، ينتهي منها إلى إصغار أمر الأخفش ، الذي يعتبر من أعظم الثقاة في علم النحو! ويصف علم النحو بالمزري الذي انحط حتى أصبح ادعاءً سخيفاً .²

أرأيتم كيف ينسف كريم نسبة النحو العربي إلى العرب، وينسبه إلى الآراميين والفرس؟! وعلته في ذلك حاجة الأجانب لتعلم الكتابة العربية، وقراءة اللغة العربية على وجه صحيح، ويتعجب المرء ويتساءل الآنَّ هؤلاء الأجانب يرومون أن يتعلموا الكتابة العربية، وقراءة العربية على وجه صحيح، يعوزهم ذلك إلى أن يتجشموا وضع علم قائم بذاته يحتاج إلى جهود كبيرة ، ثم كيف يتعلمون القراءة العربية والكتابة العربية ويقومون بوضع علم ليس باليسير وضعه كعلم النحو؟!

على أن مستشرقاً كـ "ت - ج - دي بور" نراه يقول : (كان للعرب شغفٌ خاصٌ بلغتهم ، وكانت هذه اللغة بما حوت من كثرة في المفردات ووفرة في صور التعبير ، وبما في طبيعتها من قبول للاشتقاق³ خليقة أن تتبوأ مكانها بين لغات العالم ؛ ولو قارناها باللغة اللاتينية في ثقلها وقلة مرونتها ، أو باللغة الفارسية في فرط إسهابها، لوجدناها تمتاز عليهما بما فيها من صور لفظية قصيرة تدل على المعاني المجردة، وهذه خاصية عظيمة النفع في ممارسة العلوم ، فنحن نستطيع أن نعبر بهذه اللغة العربية عن أدق الفروق بين المعاني ..)⁴

وهو يقول عن النحو العربي إنه قد احتفظ بخصائص له ، (وهو على أي حال أثر رائع من آثار العقل العربي بما له من دقة في الملاحظة ، ومن نشاط في جمع ما تفرق ، ويحق للعرب أن

1 الحضارة الإسلامية ومدى تأثرها بالمؤثرات الأجنبية لألفريد فون كريم ، ترجمة مصطفى بدر ، دار الفكر العربي ص 89- 90 ، وانظر كذلك الحلقة المفقودة في تاريخ النحو العربي للدكتور عبد العال سالم مكرم ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الثانية 1413هـ = 1993م ص 14- 18 .

2 الحضارة الإسلامية ص 91 .

3 وردة هذه الكلمة للاشتقاق ، والصواب ما أثبتته توافقا مع السياق .

4 تاريخ الفلسفة في الإسلام للأستاذ ت. ج . دي بور ، تعريب د. محمد عبد الهادي أبو ريذة ، دار النهضة العربية، بيروت ، ص 56 .

يفخروا به ..)¹ ، كما يذكر جيرار تروبو G.Troupeau أن علم النحو أعرب العلوم الإسلامية وأبعدها عن التأثير الأجنبي في طوره الأول.²

وهدف كريمر ومن على شاكلته هو أن يحطّ من شأن الحضارة الإسلامية ، وأن هذه الحضارة ماهي إلا إحدى حضارات القرون الوسطى ، وقد حاول المستشرقون بثّ تلك الصورة في كتبهم بمهارة – كما يقول الشيخ محمود محمد شاكر – وحذق وخبث مُعَرِّق ، وبأسلوب يقنع القارئ الأوربي المثقف ، ويحطُّ في نظره حضارة الإسلام وثقافته ، ويزداد بذلك زهوا بأن أسلافه من اليونان والآريين كانوا هم ركائز هذه الحضارة المزيفة الملفقة ديناً ولغةً وعلماً وثقافة وأدباً وشعراً ، ويزداد بذلك الأوربي غطرسة وتعالياً وجبريّة ، ولا يرى في الدنيا شيئاً له قيمة ، إلا وهو مُستمدٌّ من أسلافه اليونان والآريين!³

يروم المستشرقون ودهاقينهم من اللغويين العرب بكل أسف أن تنقطع الصلة بيننا وبين ماضيها في اللغة والأدب ؛ ولأنهم يدركون أن في حياة العربية حياة العرب والمسلمين ، وأن هدم العربية يتبعه بالضرورة هدم الكيان والقوام العربي والتاريخ ، والتراث والتقاليد ، فقد عملوا بكل قوة على التشكيك في أصالة العلوم العربية اللغوية والإسلامية ؛ ولذلك يقول الأستاذ العقاد : (ولكنّ الحملة على لغتنا حملة على كل شيء يعنينا ، وعلى كل تقليد من تقاليدنا الاجتماعية والدينية وعلى اللسان والفكر والضمير في ضربة واحدة ؛ لأن زوال اللغة في أكثر الأمم يبقئها بجميع مقوماتها غير ألفاظها ، ولكن زوال اللغة العربية لا يُبقي للعربي أو المسلم قواماً يميزه

¹ السابق نفسه ، ص 59 .

² انظر المستشرقون ونظرياتهم في نشأة الدراسات اللغوية لإسماعيل أحمد عميرة ص 40 ، دار حنين ، عمان ، ط2 1992م

³ رسالة في الطريق إلى ثقافتنا ، محمود محمد شاكر ص 62 ، مؤسسة الرسالة ، عمان ، الطبعة الأولى 1992م .

من سائر الأقسام ، ولا يعصمه أن يذوب في غمار الأمم ، فلا تبقى له بقية من بيان ، ولا عرفٍ ، ولا معرفةٍ ، ولا إيمانٍ¹

وكان لأهمية اللغة العربية الفصحى عند الشعوب العربية الإسلامية ما دفع المستشرقين وزبائنتهم للحؤوله بين اللغة العربية الفصيحة وبين أهلها من العرب المسلمين ، وصدّهم عن استخدامها وإهمالها بكل وسيلة ، وأن تكون العامية المحلية هي اللغة المستعملة بديلا عن العربية الفصحى ، يقول أنيس فريحة وقد تولّى كبيرَ هذه الدعوة وهو ممن نحا منحى المستشرقين ، وترسم خطاهم ، وحذا حذوهم ، ولفّ لفّهم في كلمته التمهيدية لمعجم الألفاظ العامية الذي وضعه: (وإنما نأمل أن يحدو حذونا أدباء في مختلف الأقطار العربية فيضعوا معاجم شاملة للعامية في أقطارهم حتى تتكون لدينا مجموعة نضعها أمامنا عندما نشرع يوما بوضع (قاموس العربية العتيد) ؛ لأن ما حافظت عليه الحياة وما صقلته الأيام جدير بأن يبقى)²

فهو هنا لا يستتكف أن يدعو دعوة صريحة ملؤها الأمل أن يسير أدباء في مختلف الأقطار العربية على منواله فيضعوا معاجم شاملة للعامية في أقطارهم كما فعل هو ، وهو يعدّ لغة (أكلوني البراغيث) لغة سريانية خالصة يقول : (وعندما نأتي على ذكر أمثلة من التركيب السرياني وإعطاء المقابل له في لهجتنا العامية يحضرنا الشيء الكثير نذكر لك فقط ما سمّته العرب (لغة أكلوني البراغيث) وهذه اللغة محض سريانية)³

وهو يرى أن الحركات الإعرابية والحروف العربية لا تصلح لأداء لفظ العامية أداء علميا مضبوطا ، ولا يستتكف أن يفضل الحرف اللاتيني ، ويرى أنه أفضل بكثير لهذه الغاية .⁴

1 أشتات مجتمعات في اللغة والأدب للأستاذ العقاد ص92- 93 ، مؤسسة هنداوي، القاهرة ، بدون تاريخ .

2 انظر معجم الألفاظ العامية لأنيس فريحة ، مكتبة لبنان ، بيروت طبعة 1995 م ، الصفحة الأولى .

3 السابق نفسه ص (د) .

4 السابق نفسه ص (و) .

وهكذا محاولات لاستبعاد وإقصاء العربية الفصحى ، وإحلال العامية محلها ، وتشكيك في قدرة الحروف العربية ، والعلامات الإعرابية على النهوض بالأداء العلمي المضبوط .

المبحث الأول : أصالة النحو العربي من وجهة نظر بعض المستشرقين

في هذا المبحث سوف أعرض لآراء ثلثة من المستشرقين هاجموا النحو العربي ، وافتأدوا عليه، وشككوا في أصالته ، ومن هؤلاء **المستشرق كارل بروكلمان** الذي شكك في تاريخ النحو العربي ، ووصف أوائل علم اللغة العربية بأنه يلفه الغموض والظلام ، يقول : (يبدو أن أوائل علم اللغة العربية ستبقى دائما محوطةً بالغموض والظلام، لأنه لا يكاد ينتظر أن يكشف النقاب بعد عن مصادرٍ جديدةٍ تعين على بحثها ومعرفتها)¹ وأن جهود أبي الأسود محض أساطير ، يقول : (ومهما وجب علينا أن نعد من قبيل الأساطير دراسات أبي الأسود الدؤلي وتلاميذه المزعمين ، فلا يسعنا أن نرفض الخبر القائل بأن معاذ بن مسلم (المتوفى سنة 188هـ / 802م، أو 190هـ / 805م ببغداد) عمّ أبي جعفر الرؤاسي ، كان يبحث في مسائل النحو. وقد روي عن علاقة معاذ هذا بأبي مسلم ، مؤدب عبد الملك بن مروان ، أن أبا مسلم هجا النحويين لاشتغالهم بلغات الزنج والروم ، فدفعه معاذ عن نفسه وأصحابه بأبيات .)² وإن يعجب المرء فعجيب أمر كارل بروكلمان الذي يرفض أخبار أبي الأسود ويصف تلاميذه بالمزعمين ، وهو هنا وصف له دلالته التي تفيد التشكيك وعدم التصديق ، ثم هو لا يرفض من بعد خبر معاذ بن مسلم ، وأن أبا مسلم هجا النحويين لاشتغالهم بلغات الزنج والروم ، وأن معاذ دفعه عن نفسه وأصحابه بأبيات، هو يرفض ما يريد رفضه ، ولا سيما إذا كان هذا المرفوض يثبت أصالة التراث النحوي، ويقبل ما يثير الشكوك حول هذا التراث .ثم هو ينكر جهود أبي الأسود ، ويصفها بأنها محض أساطير ، ويصف تلاميذه بالمزعمين ، وكأن أبا الأسود وتلاميذه شيء أسطوريّ اختلق اختلاقاً! وهو إنكار لا دليل عليه يؤيده ، ودعوى باطلة زائفة (فإن نحن وافقنا على أن هذه الطبقة لم يكن لها نشاط نظري في النحو ، فلا شك أن نقط المصحف ينسب لها بلا جدال ، وكان هو بداية لفت الأنظار إلى حركات الإعراب في أواخر الكلمات ، وحركات الإعراب هي مادة النحو،

¹ انظر تاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان ، ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الخامسة ج/2 ص 123 .

² السابق نفسه ج 2 / ص 123 .

فهذه الطبقة ضبطت المصحف نتيجة لوعيتها بحتمية التغير الطارئ على الظواهر اللغوية نتيجة للعوامل الحضارية المعروفة من اختلاط بالعجم وظهور للحن ، ولم يكن في وعي العرب من قبل هذه الطبقة شيء من هذا . وهذا الإحساس دفع أبا الأسود لضبط المصحف . إن هذا العمل ثابت لأبي الأسود حتى لو سلمنا بأنه لم يكن يرتسم لنفسه غاية الكشف العلمي عن الظاهرة اللغوية ، وأن عمله كان كبحا لتفاعل العجم مع اللغة العربية منعا للحن ، وأن غرضه كان دينيا فقط هو مجرد النطق السليم للغة)¹

ويذهب إلى أن الخليل هو المؤسس الحقيقي لعلم النحو العربي ، وأنه هو الذي ابتكر شكل الحروف وعلامات القراءة استنادا إلى نماذج سريانية ، (ويبدو حقا كذلك أنه - أي الخليل - ابتكر شكل الحروف ، وعلامات القراءة ، استنادا إلى نماذج سريانية)² ويرى أن ثمة أثرا فارسيا في العربية ، وهو استخدام اسم الإشارة في موضع الضمير أي " هذا " في موضع " هو " ، يقول : (أما اشتراك الفرس في تكوين علم العربية فمن الدلائل البارزة عليه استعمال اسم الإشارة في اللغة الفارسية الوسطى (البهلوية) : أي (= هذا) ، في معنى : وهو ، أو : يعني ، وقد بقي هذا الاستعمال إلى اليوم)³ ، ونحن لا نختلف مع بروكلمان في أن العربية تستخدم اسم الإشارة في موضع الضمير ، أي تستخدم " هذا " في موضع " هو " ، ولكن أن يكون هذا ذريعة للقول بأن للفارسية أثرا في العربية فهو ما لا نتفق فيه معه ، وإنما هذا من توافق اللغات ، ولا ريب في هذا ؛ ولذلك يقول سيبويه : (هذا باب ما يجوز فيه الرفع مما ينتصب في المعرفة ، وذلك قولك : هذا عبد الله منطلق ، حدثنا بذلك يونس وأبو الخطاب عن يوثق به من العرب . وزعم الخليل رحمه الله أن رفعه يكون على وجهين :

1 انظر التفكير اللساني في الحضارة العربية للدكتور عبد السلام المسدي ، الدار العربية للكتاب، ليبيا، الطبعة الثانية 1986م ، ص 93 .

2 السابق نفسه ج 2 / ص 132 .

3 السابق نفسه ص ج 2 / 124 .

فوجه أنك حين قلت : هذا عبد الله أضمرت هذا أو هو ، كأنك قلت هذا منطلق أو هو منطلق .
والوجه الآخر : أن تجعلهما جميعا خبرا لهذا ، كقولك : هذا حلو حامض ، لا تريد أن تنقض
الحلاوة ، ولكنك تزعم أنه جمع الطعمين...)¹ فسيبويه ينقل عن أستاذه الخليل جواز استخدام
اسم الإشارة بديلا عن الضمير ، وهو ما يعرف بالمعاقبة في النحو العربي ، ولا شيء في هذا.
رأي المستشرق يوهان فك :

يرى هذا المستشرق أن قواعد ونظم النحو العربي القديم معقدة ؛ ومن أجل هذا أثر الأجانب
الذين اضطروا إلى استخدام العربية التصرف بوساطة أساليب التعبير التقريبية ، التي اعتادوها
في لغتهم الأصلية ، وحذفوا حركات الإعراب الأخيرة .²

وواضح أن يوهان فك يغمز النحو العربي بوصفه نظاما معقدا ، ويحوم حول فكرة نشأته بتأثير
الأجانب ، ويتابع ذاكرة أن الروايات العربية عن أوائل النحو غير تاريخية ، وأن الدافع الأول
للملاحظات النحوية كان هو الإدراك العميق باتخاذ المسلمين الجدد لغة العرب لسانا لهم ، يقول
: (ومن المعلوم أن الروايات العربية تقرن أوائل النحو العربي بأبي الأسود الدؤلي (المتوفى
69هـ) الذي يقال إنه وضع أسس هذا العلم ، إما بدافع من نفسه ، أو بأمر الوالي الأموي زياد
بن أبيه ، أو بإرشاد من الخليفة عليّ نفسه ، لحفظ لغة القرآن من الفساد ، على السنة الداخلين
الحديثين في الإسلام . وعلى الرغم من هذه الروايات المتفرقة المتضاربة غير تاريخية بالمعنى
الصحيح ، فإنها تحتوي على إدراك عميق بأن اتخاذ المسلمين الجدد لغة العرب لسانا لهم كان
هو الدافع الأول للملاحظات النحوية)³

¹ انظر الكتاب لسبويه ج 2/ ص 83 ، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل بيروت ، الطبعة الأولى .
² انظر العربية: دراسات في اللغة واللهجات والأساليب ، من عمل يوهان فك ، ترجمة د. عبد الحلیم النجار ، الدار المصرية
السعودية ، القاهرة طبعة سنة 2006م ص 41 .
³ السابق نفسه ص 41 .

ونحن نلاحظ التناقض الذي يبطل ما ذهب إليه يوهان فك ، فكيف تكون الروايات متضاربة وغير تاريخية ، ثم تحتوى على إدراك عميق بأن اتخاذ المسلمين الجدد لغة العرب لسانا لهم كان هو الدافع الأول للملاحظات النحوية .

ويتابع يوهان فك التشكيك في أصالة النحو العربي ، والافتئاد عليه بأن الخليل لم يكن يوجد عنده ما يدل على تأثير النظرية القائلة بأن اختلاف حركات الكلمات المتصرفة متوقف على العامل النحوي ، ولا يستثني من هذا إلا التفرقة التي جعلها بين التوقيف ، أي عدم الحركة في أواخر الحروف وما شاكلها ، والجزم ، أي سكون الفعل المجزوم .¹ ومعنى كلام يوهان فك أن نظرية العامل لم تكن واضحة ولا مستقرة عند الخليل ، كيف والخليل هو المؤسس الحقيقي لهذه النظرية؟! وليس أدل على ذلك من الآراء الكثيرة التي نقلها سيبويه عن الخليل في الكتاب تثبت معرفته الكاملة بنظرية العامل .

يتهم يوهان فك بعد ذلك سيبويه بأنه لا تفرقة عنده ولا عند البصريين المتأخرين بين الاسم والفعل المرفوعين والمنصوبين في تسمية الحركة ؛ والفعل الحالي يسمى المضارع ، أي المشابه للاسم في تصرفه ؛ ولا توجد عنده اصطلاحات خاصة لأحوال الاسم ، وتغيرات الفعل ، بله تصرف الاسم والفعل بوجه عام ...²

رأي ميركس (Merx)

يرى أدالبير ميركس (Adalbert Merx) وهو مستشرق ألماني لاهوتي أن النحو العربي تأسس على المنطق ، واعتمد منطق أرسطو مصدر إلهام ، وأن النحويين الأوائل كانوا فرسا ولم يكونوا عربا³ ، وأن حنين بن إسحاق ألف كتابا في النحو العربي على الطريقة اليونانية ، وأن حنينا هذا كان معاصرا للخليل بن أحمد ، وأن الخليل أخذ عنه . وهذا محض اختلاق من

¹ السابق نفسه ص 42 .

² السابق نفسه ص 42 .

³ انظر سيبويه وأطروحة التأثير اليوناني ، بحث في أصالة النحو العربي عند " جيرار تروبو" ص 106، د. أحمد عواد ، مجلة دراسات استشرافية ، العدد 16، ربيع سنة 2018م .

ميركس؛ لأنه لم يصل إلينا شيء مما كتب عن ذلك، كما أن أحكامه لا يقوم عليها دليل، و يزعم أيضا أن النحو العربي مؤسس وفق منطق أرسطو، ويدحض هذا الزعم وفاة الخليل وسيبويه قبل نقل منطق أرسطو إلى العربية، وأيضا انعدام التشابه بين النحويين: العربي واليوناني؛ ذلك أن أقسام الكلام في العربية ثلاثة أقسام كما هو معروف اسم، وفعل، وحرف، أما عند اليونان فثمانية أقسام.، ولكن مستشرقاً منصفاً كجيرار تروبو يَرُدُّ ما ذهب إليه ميركس، بتوضيحه أن النحاة العرب القدامى لم يستطيعوا أن يعرفوا النحو اليوناني بطريقة مباشرة، لأنهم كانوا يجهلون اللغة اليونانية، ولم يكن لديهم كتاب في النحو اليوناني مترجم إلى العربية، كما أنهم لم يعرفوا المنطق اليوناني في القرن الثاني للهجرة (الثامن الميلادي)، وأن كتابي أرسطو: "العبارة" و"المقولات" لم يترجما إلى العربية إلا في القرن الثالث للهجرة (التاسع الميلادي) على يد حنين بن إسحاق، وأن كتاب "الشعر" لم يُترجم إلا في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) على يد متى بن يونس (328هـ)¹، ويتابع تروبو حججته على أصالة النحو العربي بقوله: (أظن أن المستشرقين قد أخطأوا عندما اعتمدوا على بضعة من مصطلحات يونانية ليبرهنوا على مضارعة النظام العربي النظام اليوناني؛ لأن كل واحد من المصطلحات جزءٌ من نظام معقد ليس له معنى، خارجاً عن هذا النظام)²

وبذلك ينتفي وقوع العرب من النحاة القدامى تحت وطأة التأثير الأجنبي في وضع النحو العربي، وعلى هذا فنحن أمام فريقين من المستشرقين إزاء قضية أصالة النحو العربي:

فريق يحمل مجد الأمة العربية على الأسطورة والخرافة، وينسب الحضارة العربية إلى غير صانعيها، ويجرد ها من كل ميزة، ويلتمس لها أصلاً غير عربي في حضارة أخرى كالحضارة الإغريقية أو السريانية أو غيرها، كما رأينا عند كريم الذي ينكر نسبة النحو العربي إلى العرب، وينسبه إلى الفرس والآريين، أو يقول بتأثر النحو العربي بمؤثرات أجنبية أهمها التأثير

¹ السابق نفسه، ص 124- 125 .

² السابق نفسه، ص 130 – 131 .

اليوناني ، وعلى رأس هؤلاء المستشرقين ميركس ، وهو قول كثير من المستشرقين وبعض اللغويين العرب كجرجي زيدان وأنيس فريحة وغيرهم .

وفريق منصف آخر يقول بأصالة النحو العربي في نشأته ، وعلى رأسهم المستشرق الفرنسي جيرار تروبو ، والمستشرق الإنجليزي مايكل كارتر (Michael Carter)

وأرى أن الحضارة العربية لا يضيرها في شيء أن تفيد من حضارات الأمم الأخرى ، وبالتالي لا يضير النحو العربي على فرض التسليم بتأثره بنحو بعض الأمم الأخرى ، فهذا التأثير إن صح وهو غير صحيح ، لا ينفي بحال انتماءه إلى الحضارة العربية ، ولكن التشكيك في أصالة هذا العلم وفي غيره من العلوم الإسلامية وراءه مآربٌ وغاياتٌ لا تخفى ، وهذا هو ما دفعنا لإثبات أصالة النحو العربي ، والردّ على تحرّصات كثير من المشككين من المستشرقين ودهاقينهم .

وما قاله ميركس قاله **كيس فرستيغ** (Kees Versteegh) وهو مستعرب هولندي ، حيث ذهب إلى أن النحو العربي تأثر بالنحو اليوناني ، وليس بالمنطق اليوناني كما ذهب إلى ذلك ميركس ودي بور ، وأن تأثر النحو العربي بالمنطق اليوناني جاء متأخرا جدا ، وأن تأثير المنطق واضح جلي في كتاب الخصائص لابن جني¹.

وأنا أحب هنا أن أورد رأي المستشرق الإنجليزي مايكل كارتر ، وهو من المعنيين بدراسة التراث النحوي ، وخاصة سيبويه ، وله بحث بعنوان (التداولية واللغة التعاقدية في البدايات الأولى للنحو العربي والنظرية الفقهية) ترجمه الدكتور ناصر فرحان الحريص ، وقد وقف هذا المستشرق المنصف مدافعا عن أصالة النحو العربي ، يقول في بحثه السابق : (إن البعد الفقهي الموجود في " الكتاب " ما هو إلا تأكيد لجانبين آخرين من حياة وعمل سيبويه ، وبهما يتقارب بشكل وثيق مع الأصوليين . أولا : من خلال معرفتنا الضئيلة لتاريخ حياته يمكن لنا أن نستنتج

¹ السابق نفسه ص 115- 116 .

أنه لم يكن فقط على صلة قوية مع علماء العربية الكبار، بل كان أيضا على صلة وتقارب مع علماء الدين والفقه الأوائل . ثانيا : كما يدل على ذلك الكتاب ، لقد كان أولئك العلماء مصدر إلهام لمنهجه ولأكثر مصطلحاته العلمية . وعلى الرغم من أن ذلك ليس كافيا للإجابة على القضية الجدلية حول التأثيرات الأجنبية في النحو العربي بشكل كامل ، إلا أنها تقوي الاحتمال القائل بأن الكتاب إبداع فكر رجل واحد ، ووصف غير مسبوق للعربية في كل أبعادها الدينية والشعرية والعامية والخاصة في إطار تنظيري مستوحى بشكل عميق من مبادئ النظام الفقهي الناشئ آنذاك، والذي لا يدين بشيء ، على الغالب ، لأي فكر أجنبي .¹

كما (بيّن في بحثه) في أصول النحو العربي) أن سيبويه يستعمل في الكتاب مجموعتين من المصطلحات ، مجموعة كثيرة العدد ، وتتضمن المصطلحات عربية الأصل ، ومجموعة قليلة العدد وتتضمن مصطلحات تتوافق مع مصطلحات يونانية الأصل . وأكد أن النحو العربي لم يتأثر بالقياس الأرسطي الذي يسير من الكليات إلى الجزئيات ، بل تأثر بالقياس الفقهي ، أي أن القياس النحوي العربي كان قياسا لغويا فطريا يسير على نمط القياس الفقهي الذي كان شائعا قبل ترجمة العلوم اليونانية إلى العربية ، كما أن وحدة المنهج بين علمي " أصول الفقه " ، و " النحو العربي " دليل على أن نشأتهما عربية إسلامية²

رأي ت- ج - دبور ، وهو مستشرق فرنسي يقول إن العرب ينسبون إلى علي بن أبي طالب وضع علم النحو وأشياء كثيرة غيره ، حتى لينسبون إليه تقسيم أرسطو الكلمة إلى ثلاثة أقسام ، ويرى أن الغموض يحيط بأول نشوء دراسة النحو ، ويرى أن نحاة البصرة سُموا أهل المنطق تمييزا لهم عن نحاة الكوفة ، ويرى أن سَبَقَ أهل البصرة إلى الانتفاع بالمنطق لم يكن محض اتفاق ؛ لأن تأثير المذاهب الفلسفية ظهر في البصرة قبل ظهوره في غيرها ، وكان بين نحاة

¹ التداولية واللغة التعاقدية في البدايات الأولى للنحو العربي والنظرية الفقهية لمايكل كارتر ، بحث مترجم للدكتور ناصر فرحان الحُرَيْص، مجلة جامعة أم القرى ص 411 ، العدد 19 ، مايو 2017 م .

² مايكل كارتر وجهوده في درس النظرية النحوية د. ناصر فرحان الحريص ، ص 383-384 .

البصرة كثيرًا من الشيعة والمعتزلة الذين أفسحوا السبيل للحكمة الأجنبية لكي تؤثر على مذاهبهم الكلامية.¹

ويرى أن منطق أرسطو أثر في علوم اللسان التي لم يكن شأنها جمع الشواهد والمترادفات ونحوها ؛ وأن ابن المقفع الذي كان في أول الأمر صديقًا للخليل بن أحمد ، يسّر للعرب الاطلاع على كل ما كان من اللغة الفهلوية من أبحاث لغوية ومنطقية ؛ وعلى هذا المثال حصرت الجمل في أنواع خمسة حينًا وثمانية أو تسعة حينًا آخر ، كما حصرت أقسام الكلمة الثلاثة : الاسم ، والفعل ، والحرف .² ولا أدل على دحض ما قاله دي بور من كلام الدكتور إبراهيم السامرائي إذ يقول : (على أن نظرة واحدة إلى النحو العربي تظهر بُعد هذه المادة عن كونها متأثرةً بالمنطق الأرسطي . ولئن وجد شيء دخيل فيها فهو شيء خاص بالشكل دون الأصل ، وبالأسلوب دون المادة ؛ فالتقسيمات النحوية كالجنس والنوع والخاص والعام والمطلق والمجرد من هذا الدخيل على هذه المادة الأصلية في عروبتها)³ ، وأيضا نفى المستشرق "فرنشسكو جبريلي" أن يكون ابن المقفع قد ترجم شيئًا لأرسطو ؛ لأن ابن المقفع اهتماماته أدبية ، ولا يعرف السريانية⁴ ، كما أن نشأة النحو وعلوم اللغة بدأت قبل جهود عبد الله بن المقفع وابنه في ترجمة الأفكار اليونانية، فثمة قرنٌ من الزمان بين بداية نشأة النحو ووجود ابن المقفع على الحياة ، وأنه لم يترجم كتب أرسطو ، فقد ترجمت بعد تأليف كتاب سيبويه بعقود ، وعلى هذا فالدعوى باطلة من أساسها⁵

¹ تاريخ الفلسفة في الإسلام للأستاذ ت. ج . دي بور ، تعريب د. محمد عبد الهادي أبو ريذة، دار النهضة العربية، بيروت، ص 57 .

² السابق نفسه ص 58 .

³ دراسات في اللغة ، ص 206 .

⁴ نقلًا عن الدكتور إسماعيل أحمد عمارة ص 49 المستشرقون ونظرياتهم في نشأة الدراسات اللغوية .

⁵ السابق نفسه ص 50 .

المبحث الثاني : أصالة النحو العربي من وجهة نظر بعض اللغويين العرب

يزعم فؤاد حنا ترزي نقلا عن مقال لأنيس فريحة بعنوان (أثر لغويي السريان في وضع قواعد الصرف والنحو العربيين)¹ أن الأسقف يوسف الرهاوي المتوفى سنة 708 للميلاد أسهم في الدراسات النحوية السريانية ووضع نظام الحركات السرياني ذا النقط ، وأن أبا الأسود كان معاصرا له ، وأنه أخذ نظام التنقيط والحركات العربيين عنه ، يقول : (...ثم الأسقف يعقوب الرهاوي المتوفى عام 708م . وهو تلميذ سيبوخت ، ووضع الحركات في السريانية بالنقط " وأول من ألف في نحوها كتابا يُرجع إليه ويُعوّل عليه" ، ويعقوب هذا كان معاصرا لأبي الأسود الدؤلي المتوفى عام 688 أو 689م ، والمنسوب إليه تنقيط القرآن الكريم .) وهذا الكلام مردود؛ لأن أبا الأسود الدؤلي توفي سنة 688 أي قبل وفاة الأسقف يعقوب الرهاوي بعشرين سنة فلماذا يفترض ترزي أن أبا الأسود الدؤلي أخذ عن الرهاوي نظام الحركات ؟ ولما لا يكون الذي حدث هو عكس ما يقول ترزي تماما ، ويتابع ترزي بقوله : (ثم حنين بن إسحاق الطبيب والمترجم المعروف المتوفى عام 873م والذي كان له أثر كبير في نقل علوم اليونان إلى العربية ، ويذكر ابن أبي أصيبعة أن " حنين" هذا عاصر الخليل بن أحمد وسيبويه ويعتقد أنه لازم الخليل مدة لتعلم العربية ، فإذا صحّ ذلك كان لابد من أن جرت بينهما أحاديث في المقابلات النحوية بين السريانية واليونانية من جهة ، والعربية من جهة أخرى ، ليتمكن من تعلم العربية حسب قواعد معينة ؛ ومن ثم فإننا نعتقد بأن النحو العربي تأثر إبان نشأته - في الحقبة التي بين أبي الأسود وسيبويه - بالنحو السرياني الذي كان قد تأثر بدوره بالنحو والمنطق اليونانيين .)²

¹ هكذا ذكر فؤاد حنا ترزي ، حيث قال في غير موضع من كتابه إنه نقل رأيه عن أنيس فريحة ، انظر في أصول اللغة والنحو لترزي ، هامش ص 113 .

² انظر في أصول اللغة والنحو د. فؤاد حنا ترزي ، دار الكتب ، بيروت بدون تاريخ .

ويدحض الرأي القائل بتأثر الخليل بن أحمد بحنين بن إسحاق ؛ لأنهما كانا متعاصرين ، (أن الخليل لم يعاصر حنينا ؛ فوفاة الخليل كانت في سنة 180هـ أو قبل ذلك أو بعده بقليل ، وأن ولادة حنينا لم تكن قبل سنة 194هـ ، فلم يدرك حنين الخليل ولا رآه ، والزعم باطل)¹ فكيف تأثر الخليل بن أحمد بحنين؟! مع أن الخليل مات قبل أن يولد ابن إسحاق ، والمتوقع أن يكون هو الذي تأثر بالخليل إن كان ثمة تأثر وتأثير !

رأي جرجي زيدان :

يرى جرجي زيدان أن العرب نسجوا على منوال السريان في تبويب النحو العربي ، ويعتل ذلك بقوله : (لأن السريان دونوا نحوهم وألفوا فيه الكتب في أواسط القرن الخامس للميلاد . وأول من باشر ذلك منهم الأسقف يعقوب الرهاوي الملقب بمفسر الكتب المتوفى سنة 460م ، فالظاهر أن العرب لما خالطوا السريان في العراق اطلعوا على آدابهم وفي جملتها النحو ، فأعجبهم .. فلما اضطروا إلى تدوين نحوهم نسجوا على منواله ؛ لأن اللغتين شقيقتان . ويؤيد ذلك أن العرب بدأوا بوضع النحو وهم في العراق بين السريان والكلدان . وأقسام الكلام في العربية هي نفس أقسامه في السريانية .)²

ويستمر جرجي زيدان في التشكيك في أصالة النحو العربي بقوله : (إن واضع علم النحو أو مدونه هو بالإجماع أبو الأسود الدؤلي المتوفى سنة 69هـ ، وكان من سادات التابعين ، صحب علي بن أبي طالب وشهد معه واقعة صفين ثم أقام في البصرة . وكأنه تعلم لغة السريان أو اطلع على نحوها فرغب في النسج على منواله)³

ويتابع قائلاً : (على أن ما وضعه أبو الأسود من القواعد لم يكن ليسد الحاجة المستعجلة لضبط القراءة ، فعمد إلى ضبطها بعلامات يتميز بها المنصوب من المرفوع أو الاسم من الفعل ،

¹ انظر دراسات في اللغة للدكتور إبراهيم السامرائي ، مطبعة العاني ، بغداد 1961م .
² تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، طبعة 1992م ، ص 219 .
³ السابق نفسه ص 219 .

فوضع علامات كانت عند السريان يدلون بها على الرفع والنصب والجر أو يميزون بها الفعل
من الاسم)¹

نلاحظ أن آراء جرجي زيدان كلها تقوم على مجرد الفرض والتخيل ، كأن يقول : (وكأنه –
يعني أبا الأسود – قد تعلم لغة السريان أو اطلع على نحوها فرغب في النسخ على منواله)
هذا مجرد فرض لا يقوم عليه دليل يثبته .

ويقول : (... فمضى نصف القرن الأول للهجرة والناس يقرأون القرآن بلا حركات ولا أعجام.
وأول ما افتقروا إليه الحركات ، وأول من رسمها أبو الأسود الدؤلي المتقدم ذكره .. فإنه وضع
نقطاً تمتاز بها الكلمات أو تعرف بها الحركات ، ولذلك توهم بعضهم أنه وضع نقط الإعجام ،
والحقيقة أنه وضع نقطاً لتمييز الاسم من الفعل والحرف ، وليس لتمييز الباء من التاء أو الجيم
من الحاء . والأرجح أنه اقتبس ذلك من الكلدان أو السريان جيرانه في العراق ، وكان عندهم
نقط كبيرة فوق الحرف أو تحته لتعيين لفظه أو تعيين الكلمة الواقع هو فيها ...)²

ويستمر الرجل في تخطيطه ، وافتتاده غير المبرر على النحو العربي ، وهو أنه نشأ بتأثير النحو
السرياني ، وأن لا فضل للعرب في وضع هذا التراث الشامخ ، ويبدو أن جرجي زيدان أخذ
رأيه السابق عن المستشرق الألماني كارل بروكلمان إذ قال وهو يتحدث عن الخليل : (ويبدو
حقاً كذلك أنه ابتكر شكل الحروف ، وعلامات القراءة ، استناداً إلى نماذج سريانية)³

ويذهب الدكتور حسن عون إلى ما ذهب إليه جرجي زيدان ، حيث يرى أن البدايات الأولى
للنحو العربي ليست نتاجاً محضاً للبيئة العربية ، وإنما هي امتداد للسريانية ، فقد ذهب إلى أن
طريقة الشكل وهي اللبنة الأولى في بناء النحو العربي قد استمدها أبو الأسود الدؤلي من النحاة
السريانيين⁴ ، ويسوق أدلة على هذا الرأي ومنها أن أبا الأسود قد اتخذ بيئة العراق موطناً ،

¹ السابق نفسه ص 220 .

² السابق نفسه ص 222 وما بعدها .

³ تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ص 132 .

⁴ اللغة والنحو، دراسات تاريخية وتحليلية مقارنة للدكتور حسن عون ، ص 248، مطبعة رويال، الإسكندرية ، الطبعة الأولى سنة 1952م .

وكان بها واليا إداريا ، وفيها عالما لغويا ، وزعيما دينيا ؛ وأن هذه البيئة كانت قبل الفتح العربي ، وبعده مغزوة باللغة السريانية ، وبالمعارف السريانية ؛ وكانت إلى جانب ذلك أهلة بالعلماء السريان ، وميدانا لدراساتهم ، ومناقشاتهم ، وجدلهم ... ، وأن اللغة العربية قد تعرضت بعد اتساع الفتوح الإسلامية إلى نفس الأزمة التي تعرضت لها اللغة السريانية : ظهور لغات أخرى في ميدان الحديث والكتابة ، وانتشار اللحن بين الناطقين ، والخوف من أن يمتد هذا اللحن إلى نصوص الكتاب المقدس ، ثم يستنتج الدكتور عون من انعقاد الشبه بين الأزمة التي مرت بها العربية والأزمة السريانية ، أن فكر السريان في وضع ضوابط لشكل كتابهم المقدس ؛ وأن هذه الضوابط لم تكن إلا طريقة النقط التي استعملها أبو الأسود في ضبط شكل القرآن ، ثم يختم كلامه بقوله : (أليس من العناد إذن أن نقول إن أبا الأسود لم يستمد طريقة نقط الشكل من السريانيين الذين سبقوه بنفس العمل؟)¹

وما قدمه الدكتور عون مجرد فرض لا يقوم عليه دليل منطقي مقنع ، فليس مجرد تشابه الأزمة التي مرت بها اللغة السريانية في القرنين الرابع والخامس الميلادي ، والأزمة التي مرت بها اللغة العربية بعد اتساع الفتوح الإسلامية دليلا قاطعا على استمداد أبي الأسود طريقة نقط الشكل من النحاة السريانيين ، يقول الدكتور علي أبو المكارم في الرد على ذلك : (وقد لا يكون من العناد أن يقال إن أبا الأسود لم يتأثر بالنحاة السريان في نقط المصحف ، فإن البحث العلمي لا يقر الافتراض وحده دليلا لإثبات حقيقة من الحقائق أو لرفعها)² ووصف صدور هذه الدعوى عن الدكتور حسن عون والدكتور عبد الحميد حسن في مجال إثبات تأثر النحو العربي بغيره بالغرابة ؛ (إذ تتضمن الخلط بين قضيتين مختلفتين إلى أبعد غايات الاختلاف ، وهما ضبط المصحف ، ونشأة النحو ... ، وأبسط ما كان يمكن أن يقال حينئذ إن أبا الأسود هو بطل القضيتين معا ، وأن القضيتين وإن اختلفتا مضمونا وغاية فإنهما تتصلان مادة وفكرا ، وأنه لذلك قد يُظن أن إثبات اتصال أبي الأسود بالنحاة السريان وأخذه ضبط المصحف عنهم كافٍ وحده لإثبات

¹ السابق نفسه ص 250 .

² تقويم الفكر النحوي للدكتور علي أبو المكارم ص 85 ، دار غريب ، القاهرة ، 2005 م .

تأثر النحو العربي في نشأته بالنحو السرياني) ويتساءل متعجبا كيف يقع هذان الأستاذان الجليلان بما لهما من قدرة على البحث اللغوي في هذا الخطأ؟! وكيف يتصوران أن ضبط المصحف هو نقطة البدء الأساسية في النحو العربي ، وأن طريقة الشكل هي اللبنة الأولى في بناء هذا النحو؟! وكيف أن هذين الأستاذين لم يفتننا إلى أن ضبط المصحف كان نتاج الإحساس بوجود ظاهرة محددة هي تعاقب الحركات في أواخر الكلمات ، وأنه على فرض أن أبا الأسود الدؤلي قد أفاد من السريان في طريقة الضبط الآلية فلا اتصال بين ذلك وبين الإحساس بوجود الظاهرة ذاتها؛ لأن وجود الظاهرة قديم والإحساس به معروف)¹ وعلى هذا يمكن القول إنه ليس ثمة علاقة بين النحو العربي في نشأته وبين غيره من الأنحاء الأجنبية .

رأي أنيس فريحة :

يرى أنيس فريحة أن بداية نشأة النحو غامضة ، وأن كل غامض في التاريخ تنشأ حوله روايات وأساطير في محاولة للكشف عن الغامض . ويقول إن وضع النحو يعزى إلى أبي الأسود الدؤلي، ويسرد الروايات التاريخية التي تعلق بسبب وضع أبي الأسود للنحو العربي ، ويجعلها قصصا موضوعة ، يقول : (يعزى وضع النحو إلى أبي الأسود الدؤلي . تقول رواية إن ابنته قالت له ذات مساء : ما أجمل " السماء" وكانت تريد التعجب لا السؤال عن أجمل شيء في السماء . فأجابها : " نجومها!" قالت : لست أسأل ، بل إنني أتعجب . فقال لها : قولي ، إذن ، ما أجمل السماء! وراح يكتب فصلا عن التعجب . وإنما نستشعر بأن القصة موضوعة ، إذ لا يُعقل أن يبدأ واضع أحكام اللغة بباب التعجب ؛ لأنه ليس من الأبواب الرئيسية في الأحكام اللغوية)²

فهو هنا يشكك في أصالة نشأة النحو العربي ، ويصف رواية أبي الأسود مع ابنته وكانت سببا من أسباب وضع علم النحو بأنها قصة موضوعة ، ويعلل هذا بأنه ليس من المعقول البدء بباب التعجب من واضع أحكام اللغة ؛ لأن باب التعجب ليس من الأبواب الرئيسية في الأحكام اللغوية،

¹ السابق نفسه ص 86 .

² نظريات في اللغة لأنيس فريحة ص 73- 74 ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، الطبعة الثانية سنة 1981م .

والحق أن هذا ليس سببا كافيا ومقنعا للحكم على الرواية السابقة بأنها قصة موضوعة ؛ فالرواية تقول إن الذي حدا بأبي الأسود إلى البدء في وضع علم النحو هو خطأ ابنته في سؤالها وعدم معرفتها الفرق بين أسلوب التعجب وأسلوب الاستفهام ، وهو سبب معقول جدا للشروع في وضع علم النحو .

ويستمر أنيس فريحة في تخليطه ويورد رواية أخرى حفزت أبا الأسود إلى الشروع في وضع علم النحو ، ويصفها بأنها موضوعة كذلك لتعليل قضية تاريخية ليست على وضوح تام.

منهج التشكيك ما فتئ يظهر بين الفينة والأخرى ، ثم يتابع التشكيك بقوله : (إن الذي عمله أبو الأسود الدؤلي في هذا السبيل هو تنقيط القرآن الكريم بغية ضبط قراءته ، فلا يتسرب اللحن إليه ... ومن يعرف اللغة السريانية القديمة يدرك فورا أن هذا النظام من التحريك هو النظام السرياني القديم ... وعمل أبي الأسود الدؤلي يشير إلى تأثيره بالسريانية)¹

وهو يشير إلى تأثير النحويين القدماء بالمنطق اليوناني ، ولكن ليس بطريقة مباشرة لأنهم لم يكونوا قد عرفوا أرسطو ، وإنما تأثروا أولا بالسريان الذين وضعوا أحكام لغتهم على نمط الإغريق ، ثم ينهي حديثه بقوله : (ولكن مما يؤسف له أن النحو الذي نعلمه هو النحو الفلسفي الذي تحدر إلينا ، ولا يزال على ما كانه في العصور الإسلامية الأولى)²

إن النحو العربي نشأ مرتبطا بمقاصده ، وليس بسبب ترجمة منطلق أرسطو ، والعرب طوروا علومهم اللغوية بمعزل عن التأثيرات الأجنبية ، بدليل أن وفاة سيبيويه كانت سنة 170هـ ، أي قبل ترجمة العلوم اليونانية ونقلها إلى العربية بسنين طويلة ، ثم إن النحو العربي يختلف عن النحو اليوناني والسرياني .

رأي أحمد أمين :

1 السابق نفسه ص 75 .

2 السابق نفسه ص 87 .

حذا أحمد أمين حذو المستشرقين القائلين بتأثر النحو العربي بالثقافات والأنحاء الأجنبية ، فهو يرى أن الهنود كان عندهم نحو وصرف ، وأن حكاية أبي الأسود في سبب وضع النحو العربي تشبه حكاية لديهم ، ويرجح أن حكاية أبي الأسود قد وضعت في العربية على غرارها ونمطها، يقول : (كان عند الهنود نحو وصرف ، وقالوا في أولية النحو إن أحد ملوكهم كان يوماً في حوض مع نسائه فقال لإحدهن " ما ود كندهي " أي لا ترشني عليّ الماء ، فظنت أنه يقول " مود كندي هي " أي احملني حلوى ، فذهبت فأقبلت بها ، فأنكر الملك فعلها ، فخاشنته في الخطاب ، فاستوحش الملك لذلك ، وامتنع عن الطعام كعادتهم ، واحتجب إلى أن جاء أحد علمائهم ، وسألني عنه بأن وعده تعليم النحو والصرف ، وذهب إلى " مهاديو " مصلياً ومسبحاً وصائماً متضرعاً إلى أن ظهر له وأعطاه قوانين يسيرة ، كما وضعها في العربية أبو الأسود الدؤلي ..وأنا أخشى أن تكون حكاية أبي الأسود قد وضعت في العربية على نمط الحكاية الهندية ، ولعل مما يرجح هذا الظن أن الحكاية العربية مختلفة الأشكال ، متعددة الرواية ...ثم هناك شبهة بين ذهاب العالم الهندي إلى " مهاديو " ... وبين ذهاب أبي الأسود إلى علي بن أبي طالب يسأله المعونة في وضع النحو.)¹

كما يرى أن الثقافة اليونانية كان لها أثر كبير في المسلمين ، وأن المنطق الأرسطي قد صبغ العلوم العربية صبغة جديدة صبت في قلبه ، ووضعت على مناهجه ، فقد كان للمنطق سلطان كبير على العقول في العصر العباسي ، يقول : (وتقرأ كتاب سيبويه فتجد ترتيباً وتبويباً منطقياً، يبدأ بتقسيم الكلمة إلى اسم وفعل وحرف ، ثم يعرف كل قسم ويأتي بأمثله ويذكر أحكامه ، وهكذا) ويرى أن قول أرسطو : " إن الزمان والمكان كالوعاء للأشياء إذ لا بد لكل شيء مخلوق أن يكون واقعا في زمان من الأزمنة ، وفي مكان من الأمكنة فهما كالوعاء له " هو أصل تسمية النحويين للمفعول فيه ظرفاً ، أي وعاء ، وذكر في الهامش أن هذا الرأي أخذه عن محاضرات الأستاذ جويدي أحد المستشرقين الذين كانوا يحاضرون في كلية الآداب، جامعة القاهرة وقتها.²

¹ ضحى الإسلام ، أحمد أمين ، جـ 1/ ص 191- 192 ، المكتبة العصرية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، 2006م .

² السابق نفسه جـ 1/ ص 212- 215 .

ويرى أيضا أحمد أمين أن تاريخ النحو في منشئه غامض كل الغموض ، وأن سبب ذلك ظهور كتاب سيبويه فجأة دون أن يكون قبله ما يصح أن يكون نواة تبين ما هو سنة طبيعية من نشوء وارتقاء ، ويرى أن نسبة وضع النحو إلى أبي الأسود الدؤلي أو إلى علي بن أبي طالب حديث خرافة ، ثم يعود مناقضا نفسه بقوله : (ويظهر لي أن نسبة النحو إلى أبي الأسود لها أساس صحيح ، وذلك أن الرواة يكادون يتفقون على أن أبا الأسود قام بعمل من هذا النمط ، وهو أنه ابتكر شكل المصحف ، فأخذ صبغا يخالف لون المداد الذي كتب به المصحف ووضع على الحرف المفتوح نقطة فوقه ، والمكسور نقطة أسفله ، والمضموم نقطة بين يدي الحرف ... وعلى هذا فمن قال إن أبا الأسود وضع النحو فقد كان يقصد شيئا من هذا ، وهو أنه وضع الأساس بضبط المصحف)¹

ثم عاد يتساءل : هل النحو علم عربي محض ؟ أو هو علم اُفتُيس من علم النحو عند الأمم الأخرى؟

وللإجابة عن هذا التساؤل ينقل عن المستشرق "ليتمان" قوله بأن العلماء الأوربيين اختلفوا في أصل هذا العلم ، فمنهم من قال إنه نقل من اليونان إلى بلاد العرب ؛ وقال آخرون : ليس كذلك ، وإنما كما تنبت الشجرة في أرضها ، كذلك نبت علم النحو عند العرب ، ثم ذكر أن "ليتمان" هذا يذهب في هذه المسألة مذهبا وسطا ، وهو أن العرب أبدعوا علم النحو في الابتداء ، وأنه لا يوجد في كتاب سيبويه إلا ما اخترعه هو والذين تقدموه ، ولكن لما تعلم العرب الفلسفة اليونانية من السريان في بلاد العراق تعلموا أيضا شيئا من النحو ، وهو النحو الذي كتبه أرسططاليس الفيلسوف ، وبرهان ذلك أن تقسيم الكلمة مختلف ، قال سيبويه : " فالكلم اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل " ، وهذا تقسيم أصلي ، أما الفلسفة فيقسم فيها الكلام إلى اسم وكلمة ورباط ، أي الاسم هو الاسم والكلمة هي الفعل ، كما يقال له في اللغات الأوربية (verd) والرباط هو الحرف كما يقال له في اللغات الأوربية (Conjunction) أي ارتباط ، وهذه

¹ السابق نفسه ج 2 / ص 214 - 215 .

الكلمات اسم وكلمة ورباط ، ترجمت من اليوناني إلى السرياني ، ومن السرياني إلى العربي ، ثم يقول أحمد أمين بعد إيراد رأي ليطمان : (والذي يظهر لي أن تأثير اليونان و السريان في العصر الأول لوضع النحو كان تأثيرا ضعيفا .. فلما نقلت الفلسفة اليونانية واشتغل بها المتكلمون أولا والفلاسفة ثانيا ، وعرفوا المنطق وما إليه تأثر النحو بذلك في قواعده وعلله)¹

خاتمة :

حاولت من خلال هذا المقال ، إبداء وجهة نظر بعض المستشرقين ومن لفّ لفهم من اللغويين العرب حول مسألة أصالة النحو العربي ، ورأينا كيف أن هؤلاء لم يكونوا منصفين في آرائهم على رغم من التظاهر أحيانا بالموضوعية والتجرد ، غير أنهم كانوا يبثون سمومهم في الدسم في محاولة للتشكيك في أصالة النحو العربي وتجريد الحضارة العربية من أي ميزة ، وأن هذه الحضارة ترجع في أصولها إلى حضارات أخرى غير عربية ، وأنها غير قادرة على الإبداع الذاتي ، وقد حاولت ما وسعني الجهد أن أحلل آراءهم مع تفنيدها بالدليل والحجة مستندا في ذلك إلى آراء مستشرقين أنصفوا وقالوا كلمة الحق ، وأقروا بأصالة النحو العربي ، وأنه لم يكن نتاج ثقافات أجنبية أخرى كاليونانية أو السريانية أو الفارسية ، ومن هؤلاء المستشرقين مايكل كارتر و جيرار تروبو ، وإلى كثير من اللغويين العرب الذين دافعوا بالدليل عن أصالة النحو العربي .

¹ السابق نفسه ج 2 / ص 219- 220 .

ثبت المراجع والمصادر :

- أشتات مجتمعات في اللغة والأدب للأستاذ العقاد ، مؤسسة هنداوي، القاهرة ، بدون تاريخ.
- البحث اللغوي في دراسات المستشرقين الألمان ، العربية أنموذجاً ، رسالة ماجستير ، جامعة الكوفة ، كلية الآداب سنة 1431هـ = 2010م لعبد الحسن عباس حسن الجمل الزويني .
- تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، طبعة 1992م .
- تاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان ، ترجمة الدكتور عبد الحلیم النجار ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الخامسة.

- تاريخ الفلسفة في الإسلام للأستاذ ت. ج . دي بور ، تعريب د. محمد عبد الهادي أبو ريذة، دار النهضة العربية، بيروت.
- التداولية واللغة التعاقدية في البدايات الأولى للنحو العربي والنظرية الفقهية لمايكل كارتر، بحث مترجم للدكتور ناصر فرحان الحريص، مجلة جامعة أم القرى ، العدد 19 ، مايو 2017 م .
- التفكير اللساني في الحضارة العربية للدكتور عبد السلام المسدي ، الدار العربية للكتاب، ليبيا، الطبعة الثانية 1986م.
- تقويم الفكر النحوي ، الدكتور علي أبو المكارم ، دار غريب ، القاهرة 2005 م .
- الحضارة الإسلامية ومدى تأثرها بالموثرات الأجنبية لألفريد فون كريمر ، ترجمة مصطفى بدر ، دار الفكر العربي
- الحلقة المفقودة في تاريخ النحو العربي للدكتور عبد العال سالم مكرم ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الثانية 1413 هـ = 1993 م .
- دراسات في اللغة للدكتور إبراهيم السامرائي، مطبعة العاني ، بغداد ، سنة 1961 م .
- رسالة في الطريق إلى ثقافتنا لمحمود محمد شاكر ، مؤسسة الرسالة ، بيروت، طبعة سنة 1992م.
- سيبويه وأطروحة التأثير اليوناني ، بحث في أصالة النحو العربي عند " جيرار تروبو" ، د. أحمد عواد ، مجلة دراسات استشرافية ، العدد 16، ربيع سنة 2018 م .
- ضحى الإسلام ، لأحمد أمين ، المكتبة العصرية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، 2006 م .
- العربية: دراسات في اللغة واللهجات والأساليب ، من عمل يوهان فك ، ترجمة د. عبد الحليم النجار ، الدار المصرية السعودية ، القاهرة طبعة 2006م.
- في أصول اللغة والنحو د. فؤاد حنا ترزي ، دار الكتب ، بيروت بدون تاريخ .
- الكتاب لسيبويه ، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل بيروت ، الطبعة الأولى .
- اللغة والنحو، دراسات تاريخية وتحليلية مقارنة للدكتور حسن عون ، مطبعة رويال، الإسكندرية ، الطبعة الأولى سنة 1952 م .

- المدخل إلى دراسة النحو العربي . للدكتور علي أبو المكارم ، القاهرة ، الطبعة الأولى 1980م .
- المستشرقون ونظرياتهم في نشأة الدراسات اللغوية ، دار حنين العبدلي ، عمّان ، الأردن ، الطبعة الثانية 1992 م للدكتور إسماعيل أحمد عميرة.
- معجم الألفاظ العامية لأنيس فريحة ، مكتبة لبنان ، بيروت طبعة 1995م .
- نظريات في اللغة لأنيس فريحة ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، الطبعة الثانية سنة 1981م.